**الدَّرس البلاغيُّ :**

البلاغةُ فنُّ الخطاب الجيِّد، "البلاغة نظامٌ مِن القواعد، تقوم مهمَّتُه على التوجُّه في إنتاج النَّص الأدبي، وهي نظامٌ يتَحقَّق في النص، تؤثِّر على القارئ بإقناعه، أو تؤثِّر على المتلقِّي في عمليَّة الاتِّصال الأدبي[[1]](#footnote-2)"، ولقد كان لعلمِ البلاغة فضلٌ كبير في بيان أساليب العرب، وتَراكيب لُغتِهم، وما تَمتاز به من قوَّةٍ وجمال؛ في اللَّفظ والمعنى، والعاطفة والخَيال؛ مِمَّا أعان كثيرًا على فَهْم تُراثنا، وتقدير لُغتنا، وبَيان إعجاز كِتابِنا الكريم، بل إنَّ دراسة الإعجاز البياني وإدراكه كان الهدفَ الرَّئيس الذي مِن أجْله وُضِعَ علم البلاغة؛ وفي هذا يقول ابن خَلْدون: "واعلَمْ أنَّ ثَمرة هذا الفن، إنَّما هي فَهْم الإعجاز مِن القرآن"[[2]](#footnote-3).

فالبلاغة العربيَّة على هذا دينيَّةُ المَنْبت، قرآنيَّة المَصْدر، درَجَتْ ونَمتْ في رحاب كتاب الله تعالى، تَسْتهدي آياته، وتتشرَّب معانِيَه، قبل أنْ تتناولَ الأدبَ العربي بوجْهٍ عام.

ومن خلال تتبُّعِنا الدقيقِ لِمسارات البحث البلاغيِّ عند العرب، خَلُصنا إلى أنَّ المُلاحظاتِ الأسلوبيَّة هي المصدر الأوَّل للبلاغة العربية؛ حيث جُمِعَت تحت اسم البديع ومَحاسِن الكلام (ابن المعتز)، وأنَّ الطموح إلى صياغة نظريَّةٍ عامَّة للفهم والإفهام، أو للبيان والتبيين (الجاحظ) هو المَصْدر الثاني الكبير للبلاغة العربية).

ومن هنا فإنَّ للبلاغة العربية مَهْدَين كبيرَيْن أنتجا مَسارين كبيرين: مسار البديع يغذِّيه الشِّعر، ومسار البيان تُغذِّيه الخطابة، ونظَرًا إلى التَّداخُل الكبير بين الشِّعر والخطابة في التُّراث العربي؛ فقد ظلَّ المَساران مُتداخِلَين ومُلتبسَيْن؛ رغم الجهود الكبيرة النيِّرة التي أسهَم بها الفلاسفةُ وهم يَقْرؤون بلاغةَ أرسطو وشعريَّتَه[[3]](#footnote-4).

ونحن مُطالَبون اليوم - بصورةٍ مُلحِّة - بإعادة الشرعيَّة للدرس البلاغي؛ انطِلاقًا من المفهوم النَّسقي لها، الذي يَسْعى إلى جعل البلاغة عِلمًا أعلى، يشمل التَّخْييل والحجاج، ويستوعب المفهومَيْن معًا؛ من خلال المنطقة التي يتَقاطعان فيها، ويوسِّع منطقةَ التقاطع إلى أقصى حدٍّ مُمكن، فقد حدث خلال التَّاريخ أنْ تَقلَّصَ البُعدُ الفلسفيُّ التداولي للبلاغة، وتوسَّع البعد الأسلوبي حتَّى صار الموضوعَ الوحيد لها، فكانت نهضة البلاغة حديثًا مُنصبَّةً على استرجاع البُعد المفقود في التَّجاذُبِ بين المجال الأدبي (حيث يُهَيمن التخييل) والمجال الفلسفي المنطقي من جهة، واللِّساني التداولي من جهة ثانية[[4]](#footnote-5).

**البلاغة والأسلوبية:**

لقد لقيَتْ دراسةُ الأسلوب في مباحث الإعجاز القرآنيِّ احتِفاءً عظيمًا في الدَّرس العربي، منذ القَرْن الثاني الهجري، التي استدعَتْ - بالضَّرورة - ممن تعرَّضوا للتفسير أن يتفهَّموا مدلول لفظة "أسلوب" عند البحث المقارِن بين أسلوب القرآن الكريم وغيره من أساليب الكلام العربي، مُتَّخِذين ذلك وسيلةً لإثبات ظاهرةِ الإعجاز للقرآن الكريم.‏

فقد كان لِعُلماء متقدِّمين؛ كأبي عُبَيدة (210هـ) والأخفَش سعيد بن مسعدة (207هـ) والفَرَّاءِ (208هـ) الجهدُ الكبير في إثراء مفهوم الأسلوبِ في الشِّعر، وجلاء أشكاله، رغم تَبايُنِ الأهداف التي سعَوْا إليها، بين بلاغة الخطاب القرآنيِّ وإعجازه، أو دفع طعون المُلْحِدين في القرآن وعرَبِيَّتِه.‏

وبِالعودة إلى المعاجم العربيَّة، نجد الزَّبيديَّ - مثلاً - يُعرِّف الأسلوب بأنه هو: "السَّطر من النخيل، والطَّريقُيَأخذ فيه، وكلُّ طريق ممتدٍّ فهو أسلوب، والأسلوبُ: الوَجْه والمَذْهب؛ يُقال: هم في أسلوبِ سوء، ويُجمَع على أساليب، وقد سلكَ أسلوبَه: طريقتَه، وكلامُه على أساليبَ حسَنة، والأُسلوب بالضَّمِّالفَنُّ، يُقال: أخذَ فلانٌ في أساليبَ مِن القول؛ أي: أفانينَ منه"[[5]](#footnote-6).

أمَّا عند البلاغيِّين فإنَّ الأسلوب في اعتقاد ابن طباطبا - كشأن "النسَّاج الحاذِق الذي يوفق وشْيَه بأحسن التَّوفيق، ويسديه وينيره"[[6]](#footnote-7)، حتَّى يجلي نَظْمه في أحسن حلَّة، ولا يتأتَّى له ذلك إلاَّ بالحذق في صناعة الأسلوب، والتحكُّم في آليَّاته.‏

ولقد ألفَيْنا النظرة إلى الأسلوب تتعمَّق في التُّراث البلاغيِّ مع أطروحات عبدالقاهر الجُرجانيِّ( 471 ه)ـ؛ إذْ نجِدُه يُساوي بين الأسلوب والنَّظْم، بل يَجْمع بينهما جمعًا عبقريًّا؛ لأنَّ الأسلوب عنده لا يَنْفصل عن النَّظْم بل نَجِدُه يُماثل بينهما من حيثُ إنَّهما يُشكِّلان تنوُّعًا لُغَويًّا خاصًّا بكل مُبْدِع يَصْدر عن وَعْيٍ واختيار وفَهْم، ومِن ثَمَّ يَذهب عبدالقاهر إلى أنَّ الأسلوب ضربٌ من النَّظم، وطريقةٌ فيه.‏

وإذا كان الأسلوبُ - كذلك - يجب أن يتوخَّى فيه المبدعُ اللَّفظ لِمُقتضى التفرُّد الذاتيِّ في انتقاء اللُّغة عن وعْيٍ، وذلك بِمُراعاة حال المخاطب؛ فإنَّ الجرجانيَّ قد أضاف أصلاً أصيلاً إلى نظرية الأسلوب في البلاغة العربية القديمة؛ إذْ جعل الأسلوبَ يقوم على الأصول العربيَّة وقواعدِها، فالنَّظْم يَمتنع معنًى إذا لم يَنْضبط بالنَّحو، وذلك ما أسَّس له الجرجانيُّ في دلائل الإعجاز بقوله: "واعْلَم أنْ ليسَ النَّظْمُ إلاَّ أن تَضع كلامك الذي يقتضيه علمُ النَّحو، وتَعْمل على قوانينه وأصولِه، وتَعرف مناهِجَه التي نهجت، فلا تزيغ منها، وتَحْفظ الرُّسوم التي رسمت لك، فلا تُخِلَّ بشيءٍ منها[[7]](#footnote-8)". وبذلك جعلَ عبدُالقاهر الجرجاني من النَّحو قاعدةً لكلِّ نَظْم؛ لا باعتبارِه أداةَ أسلوبٍ ينتظم بها التَّركيب في نسقِه الإعرابيِّ العام، وإنَّما جعل منه - كذلك - مستفتحًا لما استغلق من المعنى؛ إذِ الألفاظ مُغْلقةٌ على معانيها حتَّى يكون الإعرابُ مِفتاحًا لها، و"أنَّ الأغراض كامنةٌ فيها حتَّى يكون هو المستخرِجَ لها، وأنه المِعْيار الذي لا يتبيَّن نُقْصانُ كلامٍ ورجحانُه، حتَّى يعرض عليه؛ والمقياس الذي لا يَعرف صحيحًا من سقيم حتَّى يرجع إليه، ولا ينكر ذلك إلاَّ من يُنكر حِسَّه"[[8]](#footnote-9)، فإذا أدركَ المبدِعُ ذلك، استقام له الأسلوب، وأتاه أنَّى شاء.‏

وإذا انتقَلْنا بعد ذلك إلى ابن خلدون، نجده يصرِّح بأنَّ الأسلوب عند أهل الصناعة: "عبارةٌ عن المِنْوال الذي تنسج فيه التَّراكيب، أو القوالب التي يفرغ فيها، ولا يَرجع على الكلام باعتبار إفادته كمالَ المعنى الذي هو وظيفةُ البلاغة والبيان؛ لا باعتباره الوَزْنَ كما استعملَه العربُ فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجةٌ عن هذه الصناعة الشعرية"[[9]](#footnote-10).

يُعدُّ مفهوم الأسلوبيَّة - كما هو معروفٌ - وليدَ القرنِ العشرين، وقد التصقَ بالدِّراسات اللغويَّة، وهو بذلك قد انتقلَ عن مفهوم "الأسلوب" السابق في النَّشأة منذ قُرون، والذي كان لصيقًا بالدِّراسات البلاغيَّة، ومن الممكن القولُ: إنَّ الأسلوب مِهادٌ طبيعيٌّ للأسلوبيَّة؛ فالأسلوبيَّة تُحاول الإجابةَ عن السؤال: كيف يَكْتب الكاتب نَصًّا من خلال اللُّغة؟ إذْ بها ومِنْها يتأتَّى للقارئ استحسانُ النصِّ أو استهجانه، كما يتأتَّى له أيضًا الوقوفُ على ما في النصِّ من جاذبيَّة فنِّية تسمو بالنصِّ إلى مصافِّ الأعمال الفنيَّة الخالدة، والأسلوبيَّةُ من المناهج التي تبنَّت الطَّرح النَّسقي؛ انطلاقًا من مؤسِّسها شارل بالي، "فمنذ سنة 1902 كِدْنا نَجْزم مع شارل بالي أنَّ علم الأسلوب قد تأسَّسَت قواعِدُه النِّهائيَّة، مثلما أرسى أستاذُه ف.دي.سوسير أصولَ اللِّسانيات الحديثة[[10]](#footnote-11)"، ووضَع قواعدها المبدئيَّة، حينها غيَّرَت الدِّراساتُ النَّقدية نمطَ تعامُلِها مع الآثار الأدبيَّة، باعتمادها النَّسق المغلقَ، المتمثِّل في النَّص، واستقرائه من خلال لغته الحاملةِ له، وإبعادها كلَّ ما له صلةٌ بالسِّياقات، وإصدار الأحكام المعياريَّة.‏

يُمكننا أن نَخْلُص إلى أن الأسلوبيَّة غايتُه مقاربةُ النُّصوص في سياقها اللُّغوي المتمثِّل في النَّص، ومدى تأثيره في القُرَّاء، فيجعل من الأسلوب مادَّة لدراسته، حينها نجد أنَّ هذا الأخيرَ يكون حقلاً خصبًا تجد فيه الأسلوبيَّةُ ضالَّتَها درسًا وتطبيقًا،‏ ومن هنا؛ فإنَّ الجانب اللُّغوي هو مجال الباحث الأسلوبي؛ لأنَّ الأسلوبيَّة تَعُود بالضَّرورة - حسب طبيعتِها - إلى "خواصِّ النَّسيج اللُّغوي، وتنبثق منه؛ فإنَّ البحث عن بعض هذه الخواص ينبغي أن يتركَّز في الوحدات المكوِّنة للنَّص، وكيفيَّة بروزها وعلائقها"[[11]](#footnote-12). أمَّا فيما يتَّصِل "بالأثر الجماليِّ، أو تحليل المتلقي للخطاب.

**بين البلاغة ولسانيَّات النص:**

في الحديث عن البلاغة ولسانيات النص، لا بدَّ من الإشارة إلى التَّقارُبِ المنهجيِّ بينهما في النَّظرة إلى النصوص بصفةٍ عامة؛ فبينهما نقاطُ تَلاقٍ كثيرةٌ، وفي هذا يقول أ.د/ سعيد حسن بحيرى: "لا يَخفى أنَّ لِمُناقشتِنا لحدودِ البلاغة وعلاقتها بعلم لغةِ النصِّ دلالةً واضحة على الصِّلة بينهما إلى الحدِّ الذي جعلَ بعض الباحثين يعدُّها السابقةَ التاريخيَّة لعلم النص[[12]](#footnote-13)"، وهذا يوضح بجلاء العلاقةَ بينَهما في التعامل مع النصِّ الأدبي في شتَّى تمظهراته، وهذا ما يَدْفعنا - على حسب قول فانديك - إلى القول بأنَّ "البلاغة هي السابقة التاريخيَّة لعلم النص، إذا نحن أخَذْنا في الاعتبار توجُّهَها العامَّ، المتمثِّلَ في وصف النُّصوص وتحديد وظائفها المتعدِّدة"[[13]](#footnote-14).

ويَنبغي أن يُشار هنا إلى أنَّ كثيرًا من الأفكار التي تبَنَّتْها لسانيَّاتُ النَّص، والنظراتُ النصِّية بزغَتْ "من بُحوثٍ في البلاغة القديمة؛ إذْ إنَّ البحث في مُمارسة الخطاب (الكلام) في البلاغة القديمة يضمُّ عددًا من النَّظرات والقواعد الخاصَّة بتنظيم نصوصٍ محدَّدة - إذْ إنَّه قد استُخْدِمت في المباحث المتعلِّقة بترتيب الكلام وزخرفته قواعِدُ بناءٍ محدّدة للنُّصوص؛ لأهدافٍ بلاغيَّة محدَّدة"[[14]](#footnote-15).

ويُضاف إلى ما سبق أنَّ البلاغة تتوجَّه "إلى المستمِع أو القارئ لتؤثِّر فيه، وتلك العلاقة ذات خصوصيَّة في البحث اللُّغوي النصِّي[[15]](#footnote-16)"، وما تزال قواعِدُ بناء النصِّ البلاغيَّةُ ضروريَّةً، ولا يمكن الاستغناءُ عنها في دراسة النَّص، وبخاصَّة دراسة النصِّ الشِّعري بِمَفهومه الواسع.

**علم البَلاغة نموذجٌ جديد لتحليل الخِطاب:**

في البداية، أرَدْنا أن نقرِّر بأنَّ "معرفة طرق التَّناسب بين المسموعات والمفهومات لا يُوصَلُ إليها بشيءٍ من علوم اللِّسان إلاَّ بالعلم الكلِّي في ذلك، وهو علم البلاغة[[16]](#footnote-17)"، فلا عجبَ أنَّه منذ النِّصف الثَّاني من القرن العشرين ظهرَتْ في الغرب أصواتٌ تنبِّه إلى خطورةِ اختزال إمبراطوريَّة البَلاغة في المستوى الأسلوبي أو المُحسِّنات، ونَجِد جيرار جنيت G. Genette" ألَّف مقالاً أَسْماه البلاغةَ المختزَلة (La Rhétorique restreinte)، حَظِي بمكانةٍ خاصَّة في التَّنظير البلاغي الحديث، مُحاوِلاً فيه إبرازَ الانزياح الذي حدثَ في تاريخ البلاغة عندما تمَّ النظر إليها من خلال جزءٍ من أجزائها هو الأسلوب"[[17]](#footnote-18).

وعندما ننتقل إلى التَّنظير العربيِّ البلاغي الحديث، نُفاجأ بقلَّة الدِّراسات التي اهتمَّتْ بتدقيق المُصطلَح البلاغيِّ، بل إنَّ إلقاء نظرةٍ على المقرَّرات الجامعيَّة والمَدْرسية تُثْبِت مدى استمراريَّة السَّطو على الميراث البلاغيِّ من خلال علومٍ تتَّخِذ مسمَّياتٍ متعدِّدة؛ فهي سيميولوجيا، وأسلوبيَّة، ولسانيَّات، وهي مَنْطق وجدل... إلخ، وكان الدكتور محمد العمري - فيما أعلم - من أوائلِ مَن نبَّه إلى خطأ المفهوم الشَّائع للبلاغة في السَّاحة الأدبيَّة والتعليمية العربية، وهو خطأ ناجمٌ عن اعتِماد شروح التَّلخيص التي انصبَّتْ على عمل السكَّاكي "مفتاح العلوم".

إلى بلاغة الحِجَاج (بلاغة الإمتاع، وبلاغة الإقناع)؛ حيث وقف عند مختلِف العناصر التي تشكِّل قوامَ البلاغة عند أرسطو، والتي لا تعتبر المحسِّنات إلا جزءًا من أجزائه[[18]](#footnote-19).

إنَّ هذه المجهوداتِ المبذولةَ اليوم في التنظير البلاغيِّ العربي[[19]](#footnote-20).من أن تفتح بابًا جديدًا لإعادة قراءة البلاغة العربيَّة القديمة، والكشف عن مكوِّناتها الحجاجيَّة والإقناعية والتداولية، خاصةً إذا نظَرْنا إلى الفكر العربيِّ في شموليَّتِه؛ حيث يمكن أن نَجِد تَقاطُعاتٍ عديدةً بين الدَّرس البلاغيِّ وبين علومٍ أخرى؛ كالنَّحو، وعلم والكلام، والتفسير، والمنطق.

وزيادةً على ما سبق، فإنَّ البلاغة الجديدة ترى "أنَّ عمليَّة التشكيل تمتدُّ بجناحيها لِتَشمل القول، أو النصَّ بأكمله، وتجعل هذه المقولة من الفصل بينها وبين علم لغة النصِّ أمرًا مستحيلاً"[[20]](#footnote-21).

أسَّستْ هذه المقوِّمات والخصائصُ مبادِئَ أوليَّة لعِلْم النَّقد العربيِّ البلاغي، فأرسى البلاغيُّون القدامى قواعدَ النَّقد البلاغي، وكانت أبحاثُهم مُنطلَقًا لدراسات نقديَّة لاحقة[[21]](#footnote-22)"، هذه التي أرَدْنا أن نطرحها في هذه الورقة، وإن تسنَّى لنا المجال - في بحثٍ لاحقٍ - سنقوم بجملة من التطبيقات على نصوصٍ قرآنيَّة كريمة؛ لنقفَ على أهمِّ معالم هذه البلاغة العامَّة الجامعة بين القديم والجديد.

1. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 22. [↑](#footnote-ref-2)
2. -مقدمة ابن خلدون"، باب البيان، ص521 [↑](#footnote-ref-3)
3. -يُنظر: الدكتور محمد العمري، "البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول"، دار إفريقيا الشرق سنة 2005م، ص 28 - 29. [↑](#footnote-ref-4)
4. - يُنظر: يُنظَر كتاب "البلاغة الجديدة بين التَّخييل والتداول"، الدكتور محمد العمري سنة 2005م بدار إفريقيا الشرق.. [↑](#footnote-ref-5)
5. - الزبيدي، "تاج العروس"، 1/ 302.‏ [↑](#footnote-ref-6)
6. - ابن طباطبا، "عيار الشِّعر"، ص 11.‏ [↑](#footnote-ref-7)
7. - عبدالقاهر الجرجاني، "دلائل الإعجاز"، ص64.‏ [↑](#footnote-ref-8)
8. - المرجع السابق، ص74. [↑](#footnote-ref-9)
9. - مقدمة ابن خلدون"، ص 352.‏ [↑](#footnote-ref-10)
10. - عبدالسلام المسدي، "الأسلوبية والأسلوب"، ص20.‏ [↑](#footnote-ref-11)
11. - شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد"، صلاح فضل، دار الآداب، بيروت، ط1/ 1999، ص 80.‏ [↑](#footnote-ref-12)
12. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 20. [↑](#footnote-ref-13)
13. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 20. [↑](#footnote-ref-14)
14. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 29. [↑](#footnote-ref-15)
15. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 21. [↑](#footnote-ref-16)
16. - حازم القرطاجني، "منهاج البلغاء"، ص 226. [↑](#footnote-ref-17)
17. -Rhétorique restreinte. G. Genette. Figure3. Edition du seuil. Paris 1972. P 21 - 40. [↑](#footnote-ref-18)
18. - ينظر كتاب "البلاغة العامة والبلاغات المعممة"، محمد العمري، ضمن مجلة فكر ونقد، العدد 20، يناير 2000، ص 69 - 70. [↑](#footnote-ref-19)
19. - محمد الولي، "من بلاغة الحجاج إلى بلاغة المحسنات"، مجلة "فكر ونقد" عدد 20 - 1998، ص 138. [↑](#footnote-ref-20)
20. - أ.د/ سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 28. [↑](#footnote-ref-21)
21. - د.مها خيربك ناصر، "النقد العربي البنيوي"، مجلة الخطاب، العدد الثاني: مايو 2007، ص200. [↑](#footnote-ref-22)